

MOKHTAR ZOUAOU'S EFFORTS IN ARABIZING "ON DUAL ESSENCE OF LANGUAGE", MANUSCRIPT OF FERDINAND DE SAUSSURE AND ITS EPISTEMIC VALUE IN DIRECTING THE ARABIC CONTEMPORARY LINGUISTIC LESSON

Dr. Kebaili Abdelghani¹

¹Abdelhafid Boussouf University Center Mila, Laboratory Applied linguistics between science and literature (Algeria).

The E-mail Author: a.kebaili@centre-univ-mila.dz

Received: 01/2024

Published: 05/2024

Abstract:

The newly published Saussurian manuscripts, especially "On dual essence of Language" and "Texts in General Linguistics" show a new turn in his thought exceeds the epistemic boundaries that they deposited by his students in the "Lectures" published in 1916 where scientists and critics accepted them from the beginning of their discovery, as Robert Godel published some documents that the Saussure family gifted to the public library and university in Geneva in his book "The Manuscript Origins of General Linguistics" in 1957 followed after a decade by Rodolf Engler's in publishing his critical encyclopedia twice. Entitled "Writings on General Linguistics" published in 1967 then 1972, as well as the critical edition issued by Tullio De Mauro in 1968, then scientists discovered another stack of new documents organized and excellently arranged which number was (400 pages) called "Manuscripts of the Orange Gardens Les Manuscrits de l'Orangerie" in 1996, It includes the project of two semi-complete books belonging to Saussure himself and in his own handwriting, and it was achieved by Simon Bouquet and Rudolf Engler and published in 2002, as these last manuscripts carry an original Saussurian thought completely different from the thought spread by the lectures of Charles Bally, Albert Sechehay and their assistant Albert Riedlinger, and all these revolutionary discoveries and their investigations and criticism have become known as "Saussurian philologies" completely unknown to the Arab reader despite the passage of two full decades since their discovery, so the translations of Mokhtar Zouaoui come to introduce them and try to extract A complete Saussurian theory that exceeds the superficial knowledge formed after the dedication of the five Arabic translations in the mid-eighties of the last century, therefore this research is working on analyze the value of these efforts, especially his translation of the book "On dual essence of Language" and the possibilities of benefiting the Arab mind from it.

Keywords: Saussure manuscripts, Orange garden manuscripts, On dual essence of language, Manuscript origins, Arabic translation Mokhtar Zouaoui, Simon Bouquet, Rodolf Engler, Robert Godel Tullio de Murro.

جهود مختار زاوي في تعريب مخطوط "في جوهرى اللغة"، لفرديناند دي سوسير وقيمتها المعرفية في توجيهه الدرس اللساني العربي المعاصر.

د. قبايلي عبد الغاني¹

¹المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف ميلة، مخبر اللسانيات التطبيقية بين العلم والأدب (الجزائر).

ملخص:

تُظهر المخطوطات السوسيرية المنشورة حديثاً ولا سيما "في جوهرى اللغة" و"نصوص في اللسانيات العامة" منعطفاً جديداً في فكره يتجاوز الحدود المعرفية التي أودعها من قبل طلبته في "المحاضرات" المنشورة سنة 1916م، حيث أُقيل عليها العلماء والنقاد من بداية اكتشافها، إذ نشر روبيرت غودال بعض الوثائق التي أهدتها عائلة سوسير إلى المكتبة العمومية والجامعية بجنيف، في كتابه "الأصول المخطوطة للسانيات العامة" سنة 1957م، وتبعه بعد عقد رودولف أنغلر في نشر موسوعته النقدية على مرتين بعنوان "كتابات في اللسانيات العامة" المنشورة في 1967 ثم 1972م، فضلاً عن الطبعة النقدية التي أصدرها تيلو دومورو سنة 1968م، ثم اكتشف العلماء كومة أخرى من الوثائق الجديدة المنظمة والمرتببة بشكل ممتاز عددها (400 صفحة) يصطلح عليها بـ "مخطوطات حدائق البرتقال *les manuscrits de l'orangerie*" سنة 1996م، حيث تتضمن مشروع كتابين شبه تامين تعود لسوسير نفسه وبخط يده، وقد حققها سيمون بوكي ورودولف أنغلر ونشراها سنة 2002م، حيث إن هذه المخطوطات الأخيرة تحمل فكراً سوسيريا أصيلاً يختلف تماماً عن الفكر الذي أشاعته عنه محاضرات شارل بالي وألبيرت سيسهاى ومساعدهما ألبيرت رايدلنغر، وكلّ هذه الاكتشافات الثورية وتحقيقاتها ونقدها أصبحت تعرف بـ "الفيلولوجيات السوسيرية" المجهولة تماماً للقارئ العربي بالرغم من مرور عقدين كاملين على اكتشافها، لذا تأتي ترجمات مختار زاوي للتعريف بها ومحاولة استخراج نظرية سوسيرية كاملة تتجاوز المعرفة السطحية التي تشكلت على إثر تكريس الترجمات العربية الخمس في منتصف ثمانينات القرن الماضي، وعليه يعكف هذا البحث على تحليل قيمة هذه الجهود وبخاصة ترجمته لكتاب "في جوهرى اللغة" وإمكانات استفادة العقل العربي منه.

الكلمات المفتاحية: مخطوطات سوسير، مخطوطات حدائق البرتقال، في جوهرى اللغة، الأصول المخطوطة، الترجمة العربية، مختار زاوي، سيمون بوكي، رودولف أنغلر، روبيرت غودال، تيلو دومورو..

مقدمة:

تحتفي اللسانيات العربية بجملة من المجهودات الجادة والأصيلة التي تروم -عن كتب- التعمق بشكل حثيث في اللسانيات العامة من منابعها المتعددة، ولم يقعد لها مقعد المتعلم والناقل فحسب، وإنما أصبح على مسافة قريبة جداً- من المشاركة في إقامة حوار علمي رصين والمشاركة الفعالة على حلّ المشكلات المنهجية والمعرفية التي كبحت جماح اللسانيات في الفترة المعاصرة، ولا أدلّ على ذلك- ممّا اجتهد في بلورته وتهذيب مسالكه الوعرة الباحث الجزائري "مختار زاوي" الذي أثرى -بحقّ- المكتبة اللسانية العربية المعاصرة بحزمة من المؤلفات التي تلخص مشروعه الفكري المتميّز والدمس في أن، ومنها ترتيبياً: "سيمانية ترجمة النص القرآني" (2016/2015/2014م)، ثم "فصول في تداوليات ترجمة القرآن" (2018م)، وفي السنة ذاتها يبدأ النشر في اللسانيات لينطلق من: "دو سوسير من جديد؛ مدخل إلى اللسانيات"، و"من المورفولوجيات إلى السيميانيات؛ مدخل إلى فكر سوسير" مع "في جوهرى اللغة" (2019م) وقد شهدت سنة (2021م) تأليفاً وفيراً يعادل من حيث الكم ما ألفه سنة (2019م)، حيث نشر "مقدمات في النظرية السوسيرية" و"نصوص في اللسانيات العامة" و"مسائل في تلقي السوسيرية" و"مسائل في اللسانيات وعلم العلامات؛ قراءة في نصوص فردينان دي سوسير" ماي 2022م، كما يضاف إلى ميزان هذه- المساهمات الجليلة -السالفة الذكر- ما قدّمه في مقالات نشرت في دوريات ومشاركات وملتقيات علمية لا طائل إلى عدّها أو حصرها، وهي مجتمعة تعدّ مصادراً علمية عربية شديدة القوة والإحكام في التعريف باللسانيات اجمالاً ولسانيات سوسير تحديداً وما يكتنفها من نقاشات معرفية وعلمية، وبما أحيطت من نقد وتمحيص ومقارنة وتاريخ، تجعل متلقيها ليس فقط- أمام ترجمة نوعية لهذه النصوص أو مقابل أفكار ليس لنا عهد بمضامينها، وإنما أمام سيل من "المقدمات الفيلولوجية السوسيرية" التي تمنحنا الشرعية لنبش هذا السديم من جديد، ممّا جعل الباحثين يستندون عليها في إعداد مختلف البحوث العلمية الجامعية والأكاديمية، بل وتحولت أعمال "زاوي" في حدّ ذاتها إلى موضوع للبحث سواء في فكره أم في ترجماته واصطلاحاته ومقدماته، فضلاً عن مشروعه اللذين اجتهد في بلورتهما -دون كلل أو ملل- وهما: نقد الترجمات القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية خصوصاً وما يشوبها من أخطاء وقلة معرفة وسوء فهم، ومشروع إعادة تقديم أفكار وأعمال سوسير المغمورة باللغة العربية، كما نلمس محاولاته الجانبية في نقل بعض أعمال النقاد العرب الكبار إلى اللغات الأجنبية وإعداد العدّ المناسبة لتأليف معجم في اللسانيات لتدارك النقص التي

وقعت فيها المعاجم الرائجة، وعليه فإن هذا البحث سيسلط الضوء على مؤلفات الخاصة بالمشروع الأول؛ أي "إعادة قراءة فكر سوسير" من خلال المخطوطات التي عُثِرَ عليها وبطرائق مختلفة مؤخرًا لما لها من قيمة جوهرية في فهم التصورات الحقيقية له حول موضوع اللسان..

(أ) - مسوغات إعادة قراءة فكر سوسير اللساني: كما هو -الحال اليوم- بالنسبة لكثير من المشتغلين باللسانيات (عربًا وعمًّا) يظل نص "المحاضرات C.L.G" تقريبًا الوثيقة الوحيدة في الحقيقة كذلك أُريد لها أن تكون- التي تربط على الأقل الجيل الأول الذي شهد ميلادها بفرنسا في (ماي 1916م) بتعاليم ونفود وأفكار ف. دي سوسير (1857/1913م)، وهو نص قلق جدًا ومضطرب إلى حد ما، ومع ذلك فقد شكّل حسب تقدير مؤلفيه خلاصة مكثفة للسنوات الثلاث التي درّسها في جنيف بين (جانفي 1906 وجويلية 1911م) بعد مسار علمي وتعليمي ثري ودؤوب انطلق فعليًا سنة (1881م)، حيث شكّلت المحاضرة الثالثة والأخيرة، الممتدة بين (29 أكتوبر 1910 إلى 04 جويلية 1911م) بتنوعاتها وتعدّد مضامينها ومحاورها البالغة (19 محورًا)¹، وتوفر كراسات الطلبة الموثوق في التزامهم وعلى رأسهم ألبير ردينغر A. Riedlinger (1886/1965م) سندًا أساسيًا لجمع ما تفرّق من آراء سوسير في مختلف محطاته، وإعادة صياغة باقي المستندات -الطلبة الآخرين للسنتين الأولى والثانية- على أبوابها وفصولها بالشكل الذي انتهت إليه الصورة المتداوله، وقد اجتهد -كما هو معروف- كل من شارل بالي C. Bally (1865/1947م) وألبيرت سيشهاي A. Sécheyaye (1870/1946م) بالرغم من عدم حضور أيٍّ منهما طيلة هذه السنوات الثلاث باستثناء ردينغر "المساعد/المشارك/المساهم" الذي تابع درس السنتين الأولى والثانية، في إعداد هذه الصيغة المنشورة تحت عنوان "محاضرات في اللسانيات العامة /cours de linguistique générale" بالتعريف ابتداءً 1916م- ثم بالإضافة في باقي الطباعات (1922، 1931، 1949.. الخ) ملتزمين بالتسمية التنظيمية -الرسمية- للمادة، حيث نقل لنا زواوي التقرير الذي قدّمه سوسير لكلية اللغات والعلوم الاجتماعية في 27 أكتوبر 1906م يقول فيه "لقد شرفنتي اللجنة باستفتائي حول المواد التي يجب أن يحتوي عليها درس في اللسانيات العامة، وفي حالة ما إذا رغبت الكلية في إعادة تنظيم تعليم اللسانيات، وإني أقدم لها الأفكار التالية.."² وبالتالي فإن هذا العمل المتميّز بكل ما تحمله كلمة عمل- من معنى³ سيكون على موعد مع التاريخ مرتين؛ الأولى مع الجمهور الواسع الذي تلقاه بقبول حسن وثناء لأنه بمثابة استعادة للإرث السوسيري المجهول من لدن كثير من العلماء الذي كان -قاب قوسين- من النسيان، والثانية مع النقاد والمؤرخين -الشرسين- الذين تعالت أصواتهم -بشكل لا يمكن تجاهله أو حجب- حيث غدّت الشك وأحلت الريبة والرفض لبعض ما جاء في ثناياه -بشكل متفاوت- وقد صدر -ذلك- عن زملاء وأصدقاء سوسير المقربين أنفسهم؛ أي عن شخصيات لها الوزن نفسه مع المؤلفين، ويكفي لرجل واحد بحجم أنطوان ميي A. Meillet (1866/1936م) -لما له من اعتبارات شخصية جدًا- تربطه رأسا بسوسير (طالبه ثم زميله وأخيرًا صديقه الثقة) وعلمية إذ يعدّ من كبار اللسانيين المؤرخين (أو شيخ اللسانيين الفرنسيين) ليكون أكثر الأصوات سماعًا في كافة الأرجاء -خصوصًا- عندما علّق على الكتاب "C.L.G" بُعيد أيام -قليلة- من نشره قائلًا: "لو أطلع سوسير على مضمون المحاضرات لرفض نشرها.."⁴ كإجابة مبدئية -للفقرة الأخيرة- التي ختم بها الناشر مقدمتها الطبعة الأولى حيث قال على لسان بالي: "ثم إننا نشعر بحجم المسؤولية التي نتحملها -كاملة- فيما يتعلق بالنقد تجاه المؤلف نفسه الذي ربما لم يكن ليأذن بنشره.."⁵ وهو موقف تبرّره معرفتنا مؤخرًا- من خلال الكمّ الهائل من المخطوطات التي تظهر حرص سوسير الشديد بالدقة المثالية والاهتمام بأدنى التفاصيل وقساوته -على نفسه- في صياغة الجمل والفقرات وانتقاء المصطلحات والمفاهيم المناسبة لعرض تحليلاته وأوصافه، وإذا كان ذلك كذلك -وهو كذلك- فإنه يفضّل في سياقات كثيرة ترك فراغات بدلا من استعمال كلمة لم تجهز تماما في تصورات أو تعدّ في نظره أقلّ تناسبا مما ينبغي لها أن تكون، بل وحتى يقطع جملا دون استكمالها وترك المعوقين للعودة إليها -لاحقًا- فضلا عن التشطيبات والتصحيحات التي تغالب نصوصه،⁶ ومن التأويلات المجانبية للصواب -تماما- في تحليل هذه الظاهرة والتي أصبحت الميزة التي تطبع جُلّ مخطوطاته هو أنّ مشروع النظر اللساني -أو اللسانيات- كانت مشروعًا متأخرًا عزم -دون حماسة- الولوج في ثناياه، ومن أمثلة ذلك ما نقله -كحجة- مصطفى غلفان (2017م) عن جان لويس كالفي (J Calvet.L) وسار مساره عندما اشتبّه عليهم سوسير في " .. وضع يشبه ذلك الطباخ الذي يرغب في طهو وجبات جديدة، لكنّه لم يملك الفرن المناسب للقيام بما يرغب فيه، وكانت اللسانيات بمثابة ذلك الفرن الذي كان سوسير في أمس الحاجة إليه وأصبح منتهى شغله العثور عليه.."⁷ فبغض النظر عن التشبيه الذي لم يكن موفقًا فإنّ المؤرخين على شبه إجماع بإظهاره اهتماما عميقا لفهم مغاير لآلية اشتغال الأحداث اللغوية وبحس لساني -ليس- له نظير بدءًا من الثالثة عشر من عمره، وقد كتب جون دانيال كادو مقالا نقله غلفان نفسه (2017) بعنوان سوسير لساني في الرابعة عشر والنصف (Ferdinand de Saussure, un linguiste à quatorze an et demi)، يقول: "انتبه وهو فتى لم يكمل بعد

الخامسة عشرة إلى أهمية الأصوات المجهورة الأنفية في النسق الصوتي الإغريقي ويتعلّق الأمر بالتحوّل السياقي الذي يعرفه الصامت (N) عندما يوضع بين صامتين فيتحوّل إلى مصوت A...⁸ بمعنى أنّ سوسير الذي لم ينفك -بحق- يتأمل ويجزّب الدراسات اللسانية التي انتهت إلى زمانه -بصمت وروية- وعلى مواد ومعطيات واسعة جداً بدءاً من المقال والرسالة الأكاديمية (1878/ 303 صفحة) بعنوان: (النظام البدائي للحركات القصيرة في الألسن الهندو-أوروبية" (Système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes)، أطروحة الدكتوراه (فيفري) 1880م/ 108 صفحة) بعنوان: (استعمال المضاف المطلق في اللسان السنسكريتي/ De l'emploi du génitif absolu en Sanskrit) وما أظهرته المخطوطات وبخاصة المكتشفة (1913، 1955، 1967، 1996م)، والمودعة في أماكن مختلفة منها: بالمكتبة العمومية الجامعية جنيف (B.P.U.G) و مكتبة هوتون (B.H.U.H) والتي تتناول "موضوعات مختلفة من قضايا فكرية متنوعة تجمع بين اللسانيات والألسن القديمة والأدب الهومييري واللاتيني والفيدى والنقذ والتاريخ وتحليل الحكاية الخرافية والأساطير وغيرها..."⁹ حيث إنّ المعرفة المثينة لهذه الموضوعات جعله يستقرّ -تماماً- على أرضية تستوجب إعادة النظر في المنهج وجهازه الاصطلاحي ومنظومته المفاهيمية واستحداث -بشكل شبه جذري- إطاره الإبستيمولوجي من جديد، وإنّ كانت "المحاضرات" تشي بجزء يسير من هذا المشروع فإنّ المخطوطات "Les manuscrits" ستذهب إلى الحدود القصوى لهذه التصوّرات لتشكل بذلك "ثورة سوسيرية ثانية"¹⁰ ويمكن لأي باحث -اليوم- أن يتصوّر -أسفًا- ما يمكن حدوثه في العلوم الإنسانية ككل لو نُشرت هذه الأعمال في حينها أو جنباً إلى جنب مع (C.L.G) بعد وفاته، كأنّ يؤلف أحدهم "محاضرات في الجنس التصحيفي C.A" مستنداً على (3700 مخطوطاً سوسيرياً)، و"محاضرات في الحكاية الخرافية C.R.H" متكلّماً على (814 مخطوطاً سوسيرياً) ومحاضرات في اللسان السنسكريتي وأدابه، ودراسات حول النبر في اللسان اللتواني (650 صفحة)، أو محاضرات جامعة لكل ما سبق في موسوعة واحدة! ولكن سوسير -المصدوم- من الخيبة غير المنتظرة من وقع "المذكرة 1881م" تعلّم -بقسوة- التأمّل الهادئ والتفكير الصامت والسرية التامة.. الخ، هذا الوضع الذي وجد سوسير نفسه فيه قسّم المؤرخين والمحقّين ومختلف المواقف التي واجهت تدفق هذه الأعمال وبخاصة في النصف الثاني من القرن الماضي، إلى طائفتين؛ حيث فسّرت الأولى على أنّها محاولات جانبية تشبع هروبه وتملصه وحتى امتعاضه من اللسانيات التي كانت تحت "سلطة تقليدية" محدّدة، غير أنّها تحرير أكثر من (6000 وثيقة) ما يناقض صفة الهارب والتمتعّض، في حين عمدت الطائفة الثانية إلى نعتة بـ"الهوس والجنون" وأصبحت كلمة "جنون/ التي تعني الإبداع" لصيقة باسمه وأعماله منذ ستينات القرن الماضي، وفي الحقيقة يمكن الاطلاع على كتاب "كلمات تحت الكلمات 1971"¹¹ لمعرفة العبقريّة الحقيقية لسوسير في تناول هذا النوع من القضايا المعقّدة، ومع ذلك و(بين هذه وتلك) لماذا لا يتمّ التفكير في سوسير آخر غير "المنعزل والمهوس/ الهارب والجنون"؟ وهو سوسير الذي قد يكون الرجل الجامح الذي يؤمن بوجود صيغة واحدة بين "اللسان والإنسان" ويحلم بكشف الروابط بينهما وبين التاريخ والأدب والحضارة.. الخ من خلال استخراج العلاقات الصورية والأنساق الشكلية الداخلية المنظمة ذات الطابع البنوي التي تحكمهم جميعاً، وتشكل إطاراً منهجياً للدراسة العلمية الموضوعية، وهو الحلم الذي مازلت معالمه غامضة ومفقودة أو أنّها أمامنا ولم ننتبه إليها بعد.

(ب) - المخطوطات السوسيرية وقيمتها العلمية والتاريخية: يبدو أنّ سوسير الذي يفترض بأنّه لم يكتب شيئاً قد كتب كلّ شيء تقريباً، والمعلّم الذي كان "يمزّق"¹² بحق كلّ مسوداته إنّما في الواقع كان شديد الحفاظ عليها ومعتاد على تحبيرها وإجادتها كلّما نظر فيها، وإنّما كان ادعاءً متسرّعاً من بالي وسيشهاي تبريراً -ربّما- لقلّة المستندات التي اعتمدا عليها والتفافا على النقاد الذين سيطالبونهم بها، كما تتداعى فرضية "الرجل الكتوم" الذي كان -بموجبها- يحيط أعماله بسرية تامة متوجساً من القراء ولا يشارك أحداً أفكاره وملاحظاته، وهذا ما تنفيه رسالته لأنطوان مبي (نوفمبر 1906م)¹³ حيث يعرض فيها اكتشافه للتقليد السري في "تركيب الحروف" أو ما سبق تسميته بـ"الجناس التصحيفي / les anagrammes / paragrammes / hypogrammes" عند الشعراء الرومان والأغارقة والفيدا الهندوسية كنمط مشترك يستحيل أن يكون وليد صدفة من نوع ما.

قامت عائلة سوسير ممثلة في السيدة مارية دي سوسير (Maria Faesch 1867/1950) بتسليم مجموعة من مخطوطات زوجها بعد وفاته إلى مكتبة جنيف، ولسنا نعرف -تحديداً- ما إذا كانت هذه "الهدية الثمينة" وصية سوسير نفسه، أم مبادرة شخصية تفضّلت بها، وإنّ كُنّا نفكر بجدّ في الاحتمال الأول فهذا يعود إلى سببين؛ الأول: أنّها لم تطلع أحداً عليها -بنص رسالة بالي إلى مبي المؤرخة في 29 ماي 1913م بما في ذلك شارل بالي وليوبولد غوتتي وألبيرت سيشهاي وأنطوان مبي رغم معرفتها بعزمهم الحثيث على تأليف كتاب يخلّد ذكرى زوجها وتعاليمه، حيث كان هؤلاء والعديد غيرهم أسرع طريق لإخبار العالم بفكر سوسير على نحو ما فعلوه من خلال المحاضرات، غير أنّها فضّلت إيداعها بمكتبة جنيف

الجامعية ليخيم عليها النسيان حتى النصف الثاني من القرن الماضي، حيث لم تكن على قيد الحياة حتى! لتري أول نبش لها وبداية الانتباه والاهتمام بها، والسبب الثاني أنه أصبح تقليدًا عائليًا حيث قام نجلا سوسير (جاك 1969/1892م) و(ريموند 1971/1894م) بتسليم دفعة ثانية للمكتبة نفسها سنة (1921م) تضم أكثر من (465 مجلدًا مسجل عليها ملاحظات لسوسير على مدونات مختلفة)¹⁴ حتى بعد رؤيتهما لنص المحاضرات وما أثير حولها وحول أبيهما من نقاش تفاوت بين الثناء والهجاء، وأثناء إعداد الطبعة الثانية منه التي ستنتشر بعد عام؛ أي سنة (1922م)، وكذلك بعد صدور الطبعة الثالثة (1931م) والرابعة (1949م) وكان يتوجب الانتظار -مطوّلًا- إلى غاية الفترة الممتدة بين (1960/1950م) وتحديدًا سنة (1955م) ليعاود جاك وريمون تسليم دفعة جديدة للمكتبة نفسها، وهي السنة ذاتها التي قامت فيها السيدة بالي بتسليم مجموعة من المخطوطات التي كانت بحوزة شارل بالي للمكتبة نفسها، وفي عام 1967م توصلت مكتبة هوتون التابعة لإحدى مكتبات جامعة هارفارد الأمريكية إلى إبرام صفقة تجارية -رمزية- مع ريموند وبوساطة رومان جاكبسون مكنها من اقتناء مخطوطات أخرى لسوسير مجموعها (995 ورقة)¹⁵ وفي عام 1996م وعلى نحو مفاجئ ظهرت مجموعة جديدة من المخطوطات -الواضحة والمنظمة جدًّا- تعرف بـ (مخطوطات حديقة البرتقال/ les manuscrits de l'orangerie) والتي تضمّت نصوصًا كاملة -تقريبًا- في الماهية المزدوجة للسان، واللسانيات العامة.. الخ، ومع مطلع الألفية الثالثة وتحديدًا سنة 2019م عُثر -أيضًا- على مجموعة من النصوص التي تحلّل اللسان الإغريقي وعددها (400 ورقة)،¹⁶ وللسنا نعرف تحديدا -بعدها ولا سبيل إلى معرفة ذلك- ما إذا كانت قصة المخطوطات قد انتهت فعليًا قبل خمس سنوات خلت أم أن المستقبل سيحمل معه نصوصًا أخرى ومخطوطات جديدة تزيد من معرفتنا بسوسير وتصحيح جوانبنا من ثقافة تشكلت حوله على امتداد قرن من الزمن.

وفي كلّ الأحوال إنّ هذه المخطوطات "تاركة ثمينة" للمؤرخين وقيمة جدًّا للعلماء والباحثين، وهي نصوص طيبة يمكن مقابلتها مع ما يتساق معها من المحاضرات (C.L.G) لتوضيح حالات الغموض وتصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها الناشران وتقوية مواطن الوهن والضعف فيها، بل وأصبحت تعذي إمكانية جديدة -متطرفة إلى حدّما- وهي التحلي -تمامًا- عن المحاضرات في فهم لسانيات سوسير والتوجه نحو أعمال جديدة يتم فيها الاستعانة بغودال وأنغلر وبوكي، وبالنسبة للقارئ العربي يتجاوز الترجمات الخمس المتاحة حاليًا والمطالبة بترجمة جديدة جامعة لفكر سوسير على نحو جديد والاستعانة بأعمال زاوي وغلفان وكل الباحثين الذين اقتنعوا بضرورة تجديد السوسيرية تعليمًا وتكوينًا وبحثًا ونشرًا وترجمة.

وهذه الفرضية الجديدة تتبني أساسًا على محاولات -جادة ومتكرّرة- لتجنب مختلف التجاوزات المعرفية والمنهجية مثل طريقة الترتيب والتبويب فضلًا عن أخطاء معرفية طالت بعض التعريفات والحدود على الوجه الذي ظهرت به في (C.L.G)، ممّا جعلها أقلّ قدرة على تمثّل السياق المعرفي الكامل لنظرية المعلم -سوسير- حاجبة بشدّة ومانعة لأي فهم شامل لتصوراته، وافقارها إلى تحديد المنطلقات الأولى واستيعاب العلاقات المنطقية بينها جميعًا لتشكل منها فكرًا متعدّد الجوانب مترامي الأطراف محدّد الأهداف والغايات، وفي سياق ذي صلة يؤكّد "زاوي" بأنّه "... قد أضحي مستحيلًا الولوج إلى فكر سوسير اللساني دون الاسترشاد بأعمال روبر غودال، وطبعتي؛ رودولف أنغلر وتيلو دو مورو النقديتين..."¹⁷ لأنّ -هذه- الأعمال قد وضّحت -من خلال- تحقيقات متواصلة شملت كلّ الوثائق المتاحة (مخطوطات، شهادات، كراسات الطلبة، الرسائل.. الخ)، وبالتالي فإنّ أي نص حقيقي -أصيل- لا يكون كذلك إلا إذا كان مكتفٍ بما (هو) وبالشكل الذي هو عليه ويفقد جزءًا أو كلّ قيمته إذا ما افتقر إلى نصوص موازية تعيد القارئ في كلّ مرّة إلى سياق محدّد، ومن ناحية أخرى "... فإنّ الباحثين باتوا قاب قوسين أو أدنى إلى التحلّل نهائيًا من سطوة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ولم تعد معرفتهم بلسانيات سوسير العامة تقف عند أبواب هذا الكتاب ولا تتعدّى فصوله، بل صار الناس في حلّ منه، يتوسمون فيما من كتاباته التي اجتهد في تحقيقها روبر غودال ورودولف أنغلر وسيمون بوكي ونشروها تبعًا..."¹⁸ حيث توفر هذه المصادر قاعدة متينة لإعادة بناء المعالم الكبرى للسوسيرية الجديدة التي لا تنفكّ تؤكد استمرارية فكر سوسير الأصيل والخصب الذي بدأ تدفقه منذ مرحلة "المذكرة 1880م" بشكل متواصل وتطوّري حتى عام وفاته (1913م) مشكلة بذلك تاريخًا تفصيليًا لم تستطع حتى أعتى المدارس وأقوى النظريات التي ".نشأت على هذا الكتاب البوح به..."¹⁹ وبهذا فإنّ المخطوطات السوسيرية لم تعد مهمة من الناحية التاريخية لكتابة السيرة الذاتية له فحسب أو أنّها نصوص فرعية وموازية تحاول مزاحمة نص "المحاضرات"، بل أصبحت تحوز مكانها بقوة وموثوقية في سياق السوسيريات الجديدة أخذة في الابتعاد شيئًا فشيئًا لتستقل بنفسها تمامًا والاكتفاء بمحتوياتها.

(ج) - تاريخ الفيلولوجيات السوسيرية وقيمة نتائجها العلمية: إنّ الكمّ الهائل والتاركة من المخطوطات المثيرة للإعجاب والتي أشرنا إليها سابقًا قد أخذت طريقها إلى المكتبات الأكثر طلبًا وإقبالًا في العالم (جنيف/ هارفارد) بقصد وتقدير عميق

بالموقف وهي بذلك لم تخطئ وجهتها إلى المتاحف التي كانت ستفتخر بامتلاكها -خصوصا- بعد الزواج الذي لقيه كتاب (C.L.G) والشهرة العالمية لسوسير نفسه، فعلى غير فلسفة المتاحف، تقوم المكتبات بحفظها وإصلاح ضررها وترتيبها وتبويبها وترقيمها ورقمنتها وتوفرها على جمهور محدّد يشمل المتعلمين والمعلمين والنقاد والمحققين والمؤرخين وحتى الفضوليين -أحياناً- وكافة الباحثين على تعدّد ميادينهم وتشعب اختصاصاتهم للنهل منها والرجوع إليها والاستدلال بها وتحقيقتها ومقارنتها ومقابلتها مع النصوص القريبة والبعيدة عن سياقاتها التاريخية والمعرفية والعلمية وتوثيقها والتأكد من أصالتها وتحديد زمن تحريرها ونسبها وصلاحتها... الخ، وكلّ هذه الخطوات المعقّدة التي تتطلب معرفة واسعة جداً وتمرّس فعلي وخبرة بعلوم كثيرة، حيث إنّ التحقيق أو ما يطلق عليه من اصطلاحات حديثة وبعضها معرب وعلى رأسها "الفيلولوجيا/ philologie/ φιλολογία" التي هي بالتأكيد ليست مرادفة للسانيات، بل وتختلف معها في الموضوع والمنهج والعلوم التي يستند إليها كل واحد منها، فالفيلولوجيا وإن كانت قد أسهمت في تطوير البحوث اللسانية التاريخية والمقارنة فإنّها تساعدنا الآن -وأكثر من أي وقت سبق- في فهم مختلف الظروف التي تبلورت فيها أهم النصوص في تاريخ الدراسات اللغوية قاطبة، وهي كذلك وبخاصة من حيث النظر إليها وفق تحديّات المعاجم العلمية بمفاهيم اللسانيات على أنها "العلم الذي يسعى إلى إثبات صحة الوثائق التي تعمل عليها والتحقّق من صحتها بناءً على النقد الداخلي والخارجي للنصوص سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة وتأسيسها وفق معايير تشكيلها.."²⁰ وبالتالي فهو علم يساعد كلّ العلوم المحتاجة إلى هذا النوع من التحقيق بما في ذلك اللسانيات والنصوص التي تنسب إليها، وفي سياق مختلف وبالنظر إلى الثقافة العربية في الفترة الحديثة وعلى غرار الثقافة الغربية فقد مهّد هذا المنهج إلى استعادة كم هائل جداً من المصادر العربية التأسيسية عن طريق الباحثين العرب والمستشرقين و المترجمين الذين انتشلوا أعمالاً رائعة وجهوداً قيّمة جداً من النسيان والجهل والفقد مع بناء معرفة ممتازة بها وبنسبها ومشاكلها وأخطائها وحدود اشتغالها وجلال فائدتها وما صاحبها من نقل وترجمات أصبح العديد منها ذا بعد إنساني عالمي غير أنّنا نأسف -وبشدة- عن تراجع نشاط هذه الحركة الواعدة وعدم تشجيعها بالشكل المناسب حتى انسحبت تماماً من الحوارات العلمية العربية والإسلامية الذي أدى إلى إهمال وتجاهل كل تلك المخطوطات من المغرب العربي إلى وسط أفريقيا فضلاً عن المشرق والخليج وبلاد الحجاز، إلا أنّ الفترة الراهنة قد تكون الفترة التي سنشهد "ثورة" حقيقية في الفيلولوجيا وبخاصة أمام التطوّر المهول للتكنولوجيا وتعلق العلم بها من خلال اعتماده على ما تطوّر من حاسوبيات وبرمجيات سريعة وقوية ودقيقة ومتخصصة ومعالجات آلية للنصوص والذكاء الاصطناعي.. الخ، حيث أسهمت في تجاوز صعوبات عديدة تحول بين المحققين ونصوصهم وأهدافهم فضلاً عن زيادة الكم والجودة التأصيلية والتحليلية.

وفي سياق الفيلولوجيات السوسيرية للزواوي التي كرّس لها معظم أعماله فهي لا تبتعد عن التحديّات السابقة ولا عن غاياتها، بل ويؤكد على أنّ "المراد من الفيلولوجيات السوسيرية هي توثيق النصوص السوسيرية ودراستها قصد التحقق من مضامينها الفكرية، فهي إذاً تحقيق المخطوطات السوسيرية؛ وهي مخطوطات لا تقتصر دلالاتها، في نظرنا، على ما خطّه دو سوسير بخطّ يده فقط؛ إذ إنّ النصوص يراد منها -ههنا- المخطوطة والمنطوقة أيضاً.."²¹ ومنه فإنّ زواوي ومن اقتفى نهجه على يقين بوجود حقيقي لنظرية سوسيرية أصيلة وكاملة مبنوثة في هذه المخطوطات وما بين أسطر المحاضرات سواء الباريسية منها أم جنيف، وبقناعة راسخة تماماً -بأن مرحلة اللسانيات العامة وإن كانت متأخرة لا ينبغي فصلها عمّا سبقها من لسانيات مقارنة وتاريخية والنحو القومي الجرمانى والسنسكريتي التي انطلقت منذ 1880م بل وحتى الرحلة الغامضة إلى ليتوانيا 1891م، دون عزل كل هذه المعطيات عن نص المذكرتين (1878 و1880م) اللتين أعدهما في بداية حياته، فضلاً عن المداخلات التي كان يلقاها بشكل منظم في الجمعية اللسانية بباريس (S. L. P)، وما يبوح به لأقاربه وأصدقائه وزملائه من خلال تبادل الرسائل، فكلّ هذه المعطيات تشكل ركائماً عظيماً أمام أي باحث فيلولوجي والذي يحتمل انهياره في ثناياه ما لم يمسك بالخيط الناظم لها جميعاً.

ومن الغريب فعلاً- أن نبدأ هذا التاريخ الواسع من الفيلولوجيات التي انقلبت على فيلولوجيات أولئك الذين أصبحوا متهمين -فجأة- بتدمير نظرية سوسير وتشويه صورته، وهما: شارل بالي وألبير سيشهاي اللذين أقاما أولى الأبحاث الفيلولوجية حول سوسير نفسه- حيث جمعوا نصوصاً مكتوبة لمحاضرات ودروس منطوقة وحوارات ولقاءات شفوية نظمت ورتبت وبوبت ثم فصّلت فتجمعت في نص "المحاضرات C.L.G" ونشرها "لم يكن يخطر ببال الناشرين أنّ أحدًا ما سيكون بإمكانه أن يناقش عملهما الباهر، فيقارن بين الصيغ والتعريفات التي وضعوها، أو أن يكشف عن لبس وعدم تماسك نصّ كان يبدو بالنسبة إليهما واضحاً، لأنهما لم يكتباه إلا بعد أن كانا واثقين أنّهما قد نفذنا إلى صلب فكر كان كثير من جوانبه مألوفاً.."²² وبالتالي سيصبح -عمّا قريب- كلّ من نص المحاضرات والناشرين والمستندات موضوعاً لفيلولوجيات أكثر قساوة وصرامة وعلى نطاق واسع جداً وبخاصة مع بداية الاطلاع على المخطوطات كنصوص موازية لها، حيث دقّق

النقاد في كل صفحة وكلمة وحرف فيها وتتبع دقيق لكافة الأسماء الواردة والغائبة والوقوف عند كل تاريخ ومحطة، ومن خلال ما تم ذكره- يمكن التعامل مع تاريخ الفيلولوجيات السويسرية على أنها مجموعة متصلة من الأحداث انتهت إلى محطات متفاوتة من حيث الطرح والمعايير المعتمدة والنتائج التي خلصت إليها، وإجمالاً يمكن رصد ثلاث محطات أساسية، وهي:

(1) - **الفيلولوجيات السويسرية التمهيدية (1916/1956م)** : وهي المرحلة التي شهدت تشكّل وبروز المواقف المبدئية حول "المحاضرات" بدءاً من التاريخ الذي بدأت منه "القصة المعتمدة للسانيات" حيث دشّنها أنطوان مبي الذي لم يتورّع - حينها- في تسجيل بعض التناقضات ورصد كثير من الهفوات في التقرير المعدّ خصيصاً حول "C.L.G" الصادر سنة 1916م، ممّا اضطرّ سيشهاي بعدها؛ أي 1917م بنشر مقال مسهب بعنوان (مشكلات اللسان في ضوء نظرية جديدة) لردّ مزاعم كل موقف نقدي تجاه المحاضرات والناشرين وسويسر، وبعدها مع اسم هنري فراي H. Frei (1980/1899م) طالب سويسر بالقوة وبالي وسيشهاي بالفعل، إلى الإفصاح عن بعض شكوكه التي أفرزتها القراءة -المحايدة- لنص المحاضرات، غير أنّ إريك بويسنس Éric Buysence (2000/1910م) وإدوارد بيثون E. Pichan (1940/1890م) وإيميل بنفينيست E. Benveniste (1976/1902م) وغيرهم ممّن وضعوا الأساسات المتينة لنقودهم -مباشرة دون تورية- تمثّلت في الاستدلال على تناقضات معرفية واختلالات في مسابرة التطورات المفاهيمية والاصطلاحية لنص المحاضرات، وككلّ -مرّة ومرات- كان على بالي وسيشهاي الدفاع -الحاد- رداً عليهم وعلى اتهامهم بتجزئة النصوص وبترها عن سياقها العام... وغيرها من الحجج المبطلّة لملاحظاتهم.

وربما كان تعلّق الناس بالسمعة البطولية لبالي وسيشهاي وارتباطهما في المخيال العمومي بالمحاضرات وسويسر، والنظر إليهما بوصفهما المنقذان الحقيقيان لأفكار المعلمّ والورثة الشرعيين لفكره، قد حالت دون إحداث أي وقع لما ينشر ويقال في الدوائر العلمية الضيقة، بل -وأشدّ من ذلك- كان عمل النقاد أصعب وأشقّ وأقلّ قبولاً عند جمهور سويسر، من الردّ عليها وإبطالها وبخاصة من لدن الناشرين، ولا يمكن لأيّ مؤرّخ -في عصرنا- أن يخفي أو يقلّل من قيمة الشرعية الفكرية والهالة المعرفية التي كانا يتمتعان²³ بها في المجتمع الأكاديمي آنذاك.

(2) - **مرحلة الفيلولوجيات السويسرية الناضجة (1940/1996م)**: ترسبت عن النقود المستمرة لنص "المحاضرات" لفئة قوية -جداً- للمحقّقين وضجيجاً صاخباً لبالي وسيشهاي غير أنّ صمودهما طيلة جيل كامل من اللسانيين قد شارف على نهايته بدءاً من أربعينات القرن الماضي وتحديداً عندما قرّر الناشران -على غير العادة- الظهور بمرونة مع أشدّ ناقديهما هنري فراي سنة 1940م " .. في مقال واحد قصد التصريح عن موقف موحد بشأن طبيعة العلامة اللسانية الاعباطية.."²⁴ ولن يقف "فراي" عند هذا الحدّ فقط، بل سيكون مصدر إلهام للجيل الجديد كما سنرى لاحقاً.

لقد شكّلت وفاة الناشرين تباغاً (سيشهاي 1946 وبالي 1947م) فراغاً عميقاً في الزخم النقدي، ولم يعد لنقدهما "كناشرين" أي قيمة علمية إلاّ من باب الاستنناس التاريخي، حيث انتقلت بذلك أفكار "سويسر المحاضرات" من العلماء الشيوخ إلى جيل النقاد الشباب الذين لم يهتموا -كما كان الوضع من ذي قبل- بعلاقة "نص المحاضرات" بالمؤلفين بقدر اهتمامهم بعلاقته مع سويسر من خلال قنوات عدّية ومصادر متعدّدة، اجتمع بعضها في ركام مخطوطات جنيف، والظفر بنصوص جديدة للطلبة الذين تابعوا فعلياً وبانضباط شديد دروس سويسر، ومع بداية النصف الثاني من القرن الماضي برزت أسماء أخرى بمنطق مختلف ومصادر جديدة تصدّرها -في البداية- كل من رويار غودال R.Godel (1984/1902م) ورودولف أنغلر R.Engler (2003/1930م)، وتيلو دومورو T. de Mauro (2017/1932م) ثم - مؤخرًا- إيسوكه كوماتسو E. Komatsu (2013/1940م).

كان غودال -فضلاً عن الحظ الوافر- مهتمّاً بالعودة إلى "المخطوطات" المودعة في مكتبة جنيف وقد أوصله هذا الاهتمام إلى العثور -إلى جانب- ما اعتمد عليه "بالي وسيشهاي" على مجموعة أخرى منها كانت عائلة سويسر قد وهبتها حديثاً (1957م) حيث اعتمد على تحليل ما أمكنه تحليله منتبهاً إلى بعض الفروقات والتناقضات والنقائص، ممّا حمّله على المقارنة والمقابلة والاهتداء إلى أوثقها، تمخض عنها تحرير أطروحته الشهيرة بعنوان: (المصادر المخطوطة لدروس في اللسانيات العامة/ Les sources manuscrites de linguistique générale) التي رافع عنها يوم السبت الفاتح من جوان 1957م حيث كان فراي صاحب (سويسر ضد سويسر) واحد من المناقشين الذين سبق لهم الإصرار لغودال بهذا الموضوع،²⁵ والتي ختمت بهدية ثمينة جداً- تلقاها من إيميل قسطنطين E. Constantin التي تمثّلت في كراسات التي حرّرها بدقة وعناية أثناء تدرجه في صفوف سويسر وفي القاعة نفسها التي كان يحاضر فيها،²⁶ لتبدأ بذلك (نظرياً) المرحلة الفعلية للفيلولوجيات السويسرية، يقول زاوي " .. يعدّ كتاب الأصول المخطوطة الصادر عام 1957م أهمّ المنافذ إلى فكر سويسر اللساني الأصلي، ويكفي صاحبه أنّه واحد من أقرب السويسريين فهما لسويسر وأعمقهم تمثّلاً لمشروعه

اللساني..²⁷ أما (عمليًا) فليس الوضع الغربي بأفضل حال من نظيره العربي تجاه صنيع غودال الذي لم يُلتفت إليه في حينها، وعلى هذا النهج سار رودولف أنغلر في موسوعته الشهيرة (محاضرات في اللسانيات العامة؛ طبعة نقدية/ Cours de linguistique générale, édition critique)، في السنة نفسها التي سينشر دو مورو موسوعته النقدية بالعنوان نفسه؛ أي 1967م، وقد شهد له زاوي بأن ".. الطبعة النقدية التي أخرجها أنغلر عمل لا مثيل له في تاريخ الفيلولوجيات السويسرية، فقد راح يقابل كتاب C.L. G. الفقرة تلوى الأخرى بما أوتي له آنذاك من كراسات الطلبة، لكل من أ. رايدلنغر، لويس كاي، ل. غوتيي، ف. بوشاردي، إ. قسطنطين، ج. دوغالي، السيدة شهاي، ف. جاك، بمجموع أكثر من ثلاثين كراسة، أي أكثر من 2500 صفحة.."²⁸ وتبعه في ذلك دومورو الذي عاد بدوره إلى مخطوطات مكتبة جنيف وإلى أعمال غودال وأنغلر ورومان ياكسون وروني أمكر.. وغيرهم، وقد تدعم عمله -هذا- بتعليقات عميقة ودقيقة وبخلفية معرفية ثابتة اجتمعت في أكثر من ثلاثمائة هامشًا يوضح فيه كل ما أفرزته تحقيقاته على متون C.L.G. والمخطوطات، ومن وجهة نظر ما يمكن تقديم الطبعة النقدية (وبخاصة في نسختها الفرنسية) التي نقلها جان لويس كالفي (J.L. Calvet) (1942) سنة 1972م، على أنها العمل الأكثر تأثيرًا وشهرة في هذه المرحلة وخاتمتها -الرائعة- المعتمدة -عادة- كمقدمة لمكتبة سويسر التي اجتهد في تحقيقها ونشرها أنغلر (1972/1968م) وأعمال غودال قبله. وفي الوقت نفسه تعدّ تنويجًا وتطويرًا لهذه الأعمال السالفة كلها.

وفي العالم العربي وبخاصة- في شقّه المغاربي فقد كانت الطبعة النقدية لدومورو أوفر حظًا وأكثر إقبالًا من أعمال غودال وأنغلر التي بقيت شبه مجهولة تقريبًا، فضلًا عن مدونات مختار زاوي ومصطفى غلفان فإننا نجد مصدرًا أساسيًا في سياق تلقي اللسانيات السويسرية وبخاصة "المحاضرات C.L.G." عند كل كتابات حسين السوداني ومحمد الشاوش وتوفيق زاوي وعبد السلام المسدي وقاسم رياض محمد العمري حافظ إسماعيلي علوي.. الخ، ولم تعد المقالات العلمية والبحوث الأكاديمية في مختلف الأطوار تتناول اللسانيات ومقولات سويسر إلا من خلال -هذه- الطبعة المعتمدة كأوثق مصدر للمعرفة اللسانية، كما تختفي -تماما- وفي كل المكتبات الجامعية والعمومية نص المحاضرات في طبعته الأولى والثانية (1916-1922م)، كما تتفخر دور النشر الجزائرية والتونسية بإعادة طبعها وتوزيعها، ومن المؤسف - حقيقةً- عدم تعريبها رغم تأخر الترجمات إلى منتصف ثمانينات (1985/1984م) القرن الماضي، ومع ذلك فإننا نلاحظ بأن شهرة "هذه الطبعة" كانت من خلال بترها عن سياقها الفيلولوجي وعدت طبعة جديدة لمحاضرات "بالي وسيشهاي"، مما قطعها عن غودال وأنغلر ثم مع إيسوكه كوماتسو E. Komatsu (2013/1940م) وسيمون بوكي S. Bouquet (1954م) .. وغيرهم ما عدا قلة من الباحثين الذين يتناولونها كتنوّر منهجي ونقدي ضمن سياق تناول الفيلولوجي السويسري للمخطوطات والمحاضرات، وعليه فإنّ النقاد الراضين لأعمال بوكي وأنغلر وغودال وميخيا وغمبارارا.. الخ، والتشكيك في صحة أسانيد المخطوطات لسويسر نفسه كان -من باب أولى- الوقوف عند الطبعة النقدية لدومورو أولاً ثم أنغلر وغودال!

أما المشرق العربي الذي تلقى اللسانيات -مبكرًا- بدءًا من أربعينات القرن الماضي وعلى أيدي إبراهيم أنيس (1977/1906م) وعلي عبد الواحد وافي (1991/1901م)، وقبلهما اللسانيات التاريخية المقارنة على يدي برجشتراسير (1933/1886) Gotthelf Bergsträßer والمحاضرات عن طريق الترجمات الإنجليزية (1952: باسكين، 1982: هاريس) غير أنّه تأخر عن هذه الفيلولوجيات التي ظهرت متزامنة مع الاكتساح الشامل للسانيات تشومسكي Chomsky (1928) N. A. المعروفة بالنحو التوليدي التحويلي (G.G.T) بدءًا من السنة نفسها التي صدرت فيها أعمال غودال الأولى (1957م) فاشتغلوا على تشومسكي وانشغلوا به عن سويسر وعن التطورات والاكتشافات الهائلة التي صاحبت هذه المرحلة، وبخاصة بعد النقد -الهذام- الذي وجهه تشومسكي لسويسر المحاضرات الناتجة عن فهم سيء -جدًا- له من خلال الصورة المشوهة والساذجة التي ظهر بها في "المحاضرات C.L.G."، وعليه فإنّ الترجمات التي عكف على إعدادها "مختار زاوي" إلى العربية والدراسات والتحليلات التي صدرها بها يمكن أن تقدّم رؤية واضحة لنوع جديد من اللسانيات السويسرية بإمكانها -على الأقل- النظر في المناهج الدراسية وتصنيف الأبحاث وتصحيح الترجمات..

(3) - مرحلة فيلولوجيات حدائق البرتقال؛ (1996-2019م): يبدو أننا نغالب العلم في تاريخ السويسريات فيغلبنا -هذا الأخير- بصدفة وأحاجيه التي تخاتلنا حلولها وفك أسرارها فتصبح فجأة- أعض من ألغازها نفسها؛ فيخفي -أمام ناظرنا- ما كنا نبحت عنه -يهوس- طيلة ثمانين عامًا من نشر "المحاضرات" وعلى نحو غير متوقع يكشف لنا نفسه دفعة واحدة، ففي عام 1996م تجتمع أحداث كثيرة تؤدي بنا إلى إعادة كتابة تاريخ طويل كاد يصبح سردية راسخة لا مجال إلى تأويلها مجددًا، ففي هذا التاريخ ومن المكان الذي بدأ منه كل شيء وهي مكتبة جنيف (B.P.U) ولكن هذه المرة خارج أسوارها وعلى بعد خطوات منها وأثناء ترميم قصر سويسر تمّ العثور على نحو -محيّر- على مخطوطات جديدة تختلف -تماما- عن

سابقاتها من حيث الترتيب والوضوح والتصنيف، ستعرف بعدها بـ"مخطوطات حدائق البرتقال/ Les manuscrits de l'orangerie" وبالرغم من أنه ليس من السهولة -بما كان- الاطمئنان إلى حالتها الممتازة وطريقة الحفظ الجيدة التي وجدت عليه، إلا أنها تضمنت نصوصا مصنفة على محاور، هي: ²⁹ الماهية المزدوجة للغة (17-88ص)، عناصر جديدة (89 ص) كتابات أخرى في اللسانيات (124 ص)، ملحوظات تحضيرية لدروس اللسانيات العامة (283ص)، منها نسان جديان "الماهية والنصوص" عكف سيمون بوكي ورودولف أنغلر على تحقيقهما ونشرها سنة 2002م، وترجمهما مختار زواوي تباغاً لأول تحت عنوان "في جوهرى للغة" سنة 2019م، والثاني "نصوص في اللسانيات العامة" سنة 2021م، بينما باقى النصوص سبق لغودال وأنغلر تحقيقها متفرقة في موسوعتيهما (1972/1967/1957م).

إن الثمانين سنة من القراءة والفحص والشك والمقارنة والبحث والعودة إلى نص "المحاضرات C.L.G." قد مكّنت المحققين من نحت خبرة فريدة في معرفة المخطوطات السوسيرية كما هو الحال عند "دومورو وغودال وبوكي وأنغلر" وأكسبت النقاد والمؤرخين حدسا عميقاً ونظراً ثاقباً في رصد مواطن الخلل والضعف والخطأ في النصوص المحققة على ما نلمسه في "أماكر وبييطو.." وأمام التهم الموجهة إلى بوكي وأنغلر التي تفيد بتدخلهما في تعديل النص المحقق (إعادة الترتيب، حذف الفراغات عدم تحليل التشطبيات.. الخ) جعلت عملهما في صدارة أكثر التحقيقات نقداً، ومن -عجب العجائب- أن هذا النقد تحديداً هو ما سيؤدى بالكتابين إلى شهرة عالمية تلتقيهما المقالات والدوريات والحلقات التي تأججت بالبحث الذؤوب في عمل الناشرين ونصوصهما وتحقيقاتهما والمعايير المعتمد، وبكفي للقارئ للعودة إلى المجلة الدولية "كراسات سوسير C.F.S." ليلتمس هذا النشاط العارم.

وأمام -هذه الظروف العسيرة- التي وجدت فيها "المخطوطات" يبدو أن روني أماكر -الذي لم يكن مرتاحاً لها- كان متذمراً وبشدة من تفريق غودال وأنغلر للنصوص اللسانية التي حقّقها، حيث إعادة جمعها وتأصيلها ونشرها من جديد في السنة ذاتها تحت عنوان "علم اللغة والماهية المزدوجة للغة/ Science du langage. De la double essence du langage" كما ستوحي -هذه السنة أيضاً- إلى كوماتسو بإعادة نشر "المحاضرات" متبعا للتسلسل الزمني لها ومعتمداً على محفوظات ³⁰ "إ. قسطنطين، ش. باتوا، أ. ريدلنغر" فضلا عن إعادة نشر "محاضرات السنة الثالثة" بالاعتماد على دفاتر قسطنطين التي أهداها لغودال من لندن كلوديا ميخانو ودانيال غمبارارا.

وفي العام نفسه، أي؛ 1996م يضع حفيد سوسير "كلود Claude D.S" بين يدي "كلوديا ميخيا كيخانو/ Claudia M. Q" الطالبة اللامعة التي كونها لويس بييطو، كل ما تحتاج إليه من معلومات وبعض الرسائل قصد إعداد سيرة علمية لجده، حيث نشرتها على مرتين (2012/2008م)، تحت عنوان: "سيرة تاريخية لفرديناند دو سوسير/ Portrait diachronique de f s" والتي سمحت لنا فيهما التوغّل أكثر في تفاصيل حياة سوسير. إن هذه اللسانية -الشابة- التي لم تكن لتعلم -يوماً- وهي تحاضر وترافع على سوسير من خلال ما جمعته وتسلمته من "كلود" أنها ستكون -ضيفة محظوظة- على القصر الذي عاش فيه سوسير بـ (Vuffens) وقضى فيه أيامه الأخيرة؛ حيث دعاها في (فيفري 2013م) سبط آخر لسوسير "فليب دو سوسير/ Philippe D.S" أين قضت فيه أياما تتجول بين قاعاته ومكاتبه وحدائقه، وبالرغم من جمال المكان وسعته وعناقته إلا أنه لم يحجب عنها "منجم الذهب" الذي عثرت عليه، متمثلاً في "... المئات من الرسائل التي حرّرها سوسير إلى زوجته "ماريا/ Marie" ومخطوطات مختلفة، ومجلّات ومواعيد سفر ووثائق عائلية مذكرات يومية قصاصات نصية موجزة كان يعدّها أثناء فترات العمل المكثّفة، وريقات كان يتواصل بها مع أصدقائه المتبقيين في جنيف للحصول بشكل عاجل على معلومات واستفسارات وأعمال علمية محدّدة من مقالات وكتب ومجلّات ودوريات.."³¹ وهكذا ظهر أخيراً كتابها بعنوان "حياة في رسائل/ Une vie en lettres" في جوان 2014م، وحتى بعد عقد من نشره لم يصل بعد إلى مستوى شهرة أعمال غودال وأنغلر وأماكر وبوكي وكوماتسو... الخ، ناهيك عن بالي وسيشهاي ولكن سيفعل ذلك يوماً -ما- إذ يحتوي بين دفتيه على إجابات موثقة واقتراحات وتأويلات منطقية لجملة من الأسئلة التي عمّرت لأكثر من ثمانين سنة وعلى رأسها السبب المجهول الذي حمل سوسير على السفر إلى لتوانيا ومكوته فيها لسنة كاملة عام 1891م.

(ه) - مختار زواوي؛ الترجمة من أجل مشروع نظرية لسانية عربية: تعدّ الترجمة فعلاً حضارياً قيماً جدّاً- يهدف إلى نقل مختلف المعارف والعلوم والفنون من أمة إلى أخرى، ومن نسق سيميائي إلى نسق مختلف عنه ومن اللغة القاعدة إلى اللغة الهدف، ويعدّ هذا الفعل -على صعوباته وتعقيداته وترامي العلوم التي يجمعها حتى يغدو فعلاً مقبولاً و متميزاً- من أقدم الممارسات اللسانية التي اهتدى إليها البشر عبر التاريخ حيث ظهرت جنباً إلى جنب مع اكتشاف الكتابة (3200ق.م)، ومن منظور أنطوان مبي فإن "...الذين اخترعوا الكتابة وحسّنها هم في الحقيقة من أكبر اللغويين، بل هم الذين أبدعوا اللسانيات بحق.."³² وقد أسهمت الترجمة في نقل الشعلات الحضارية والعلمية من مكان إلى آخر ومن زمن إلى زمن ليحافظ على استمرارية العقل البشري المبدع والخلاق.

ومن ناحية أخرى؛ فإنه لا تحظى كل النصوص بالترجمة ونقلها وتدويلها بين اللغات والثقافات وإنما يحدّد المترجمون حاجاتهم الحضارية وأولوياتهم المعرفية التي تسدّها في مجتمعاتهم، فيكسبون من خلالها خبرات جديدة تؤدي إلى توليد النصوص الأساسية والمنطلقات الأولية لبناء معرفة شاملة تمهّد إلى قيام مشاريع كبرى تحرّر العقل الجمعي من التلقّي السلبي لها وتجعله مشاركاً في الحوار العلمي العالمي. ومن هنا نطرح السؤال الآتي: لماذا عكف مختار زاوي على ترجمة كتابي "في جوهر اللغة، ونصوص في اللسانيات العامة"؟ ولم يتوجه مثلاً إلى كتب المعاصرين الأكثر شهرة والأقل صعوبة؟ إن الإطلاع على هذين المؤلفين ومؤلفاته الأخرى تجعل أيّ باحث -حبيب- يستشعر بعمق إمكانية الاستفادة من -هذه- المعارف وهذا الجدل لتكوين موقف علمي جذري باللسانيات يعيد -من خلاله- ترتيب معارفه وتجاوز مشكلاته وأمام مشروع تتشكّل داخله معالم نظرية لسانية ذات طابع وأفاق عربيين.

وعليه، فإنّ مختار زاوي مقتنع تماماً- بأنّ الترجمة والتحقيق هما السبيلان إلى انطلاق هذا المشروع -الواعد- وبأنّ نظرية لسانية عربية لا يمكنها بحال تأتيتها بالإطلاع على النصوص الأصلية فقط- لأنّ ذلك غير متاح لجمهور واسع من الفراء والمختصين، وبالنظر إلى طبيعة اللسانيات فإنّها لم تعد تعتمد لغة واحدة في تطوير مفاهيمها، والقارئ العربي أمام فيض من النصوص منها الفرنسية والإنجليزية والألمانية الإيطالية والاسبانية... الخ، فغودال الذي يكتب بالفرنسية ينشر أيضاً بالألمانية والحال نفسه بالنسبة لبالي وسيشهاي وأنغرل وأهم أعمال دومورو (أقرب المحققين إلى فكر سوسير) مازالت حبيسة اللغة الإيطالية، فضلاً عن سوسير نفسه الذي كتب بالفرنسية وبخلفية معرفية لسانية فريدة بالألمانية والقوطية واللواتية والإنجليزية والسنسكريتية والإغريقية.. وبهذه الخلفية تشكّلت حدوده وتصوراته وأفكاره وفهمه، لذلك لا يكفي -اليوم- لباحث لساني أن يتقن لغتين أو أكثر ليستطيع الولوج إلى النصوص وتمثّل أبعاده المختلفة، بل عليه اكتساب جملة من المهارات الأساسية لاختراق الترجمة الكلاسيكية -العامة- إلى الترجمة المختصة التي يمكن له بها بناء مشاريع علمية واضحة، وفي هذا السياق تحديداً- يمكن أن نتلمس نتائج النوع الأوّل في الترجمات العربية الخمس لنص المحاضرات -على سبيل العرض لا الحصر- والمعاجم والمؤلفات، التي وإنّ كانت قد عرّفت باللسانيات (وبسوسير والناشرين وإقامة جهاز اصطلاحي..) إلّا أنّها متفاوتة فيما بينها بشكل واضح في تمثّل النصوص الأصلية والمفاهيم الدقيقة، وفي توطيق هذه المعرفة وحصر النصوص الفارغة.. الخ، وهي بذلك لم تضع القارئ العربي في صلب الأسيقة الحقيقية لللسانيات ومازلت تفعل ذلك لتأخر تصحيحها بالشكل المناسب.

وبالتالي، فإنّ أهمية مدونات -زاوي- ليست محصورة في الانتقاء الممتاز للنصوص التي نقلها -وقد غلب على بعض الباحثين الكبار بأنّ سوسير وكل ما يرتبط به أضحى مستهلكاً مُتجاوزاً- ولا بالمستوى العالي في التحليل والمقارنة وربط الأحداث بعضها ببعض، وإنّ كانت حياة سوسير في حدّ ذاتها معقّدة تحتاج إلى تضافر الجهود لفهمها، إلّا أنّ أهميتها تكمن في بناء نظرية واضحة المعالم لكيفية ترجمة ونقل ونشر هذا النوع من النقاشات العلمية، ثمّ إنّ ترسيخ هذه المقدمات في "الفيلولوجيات السوسيرية" التي جمع فيها بين (الترجمة والتحقيق واللسانيات) ونسج خيوط متعاقبة بينها، تجعل منها منهجية في حدّ ذاتها يمكن استثمارها وتطبيقها على مختلف النصوص المماثلة سواء أكانت تراثية عربية أم حديثة مغمورة لم تأخذ مكانتها المناسبة في مستويات بناء العقل العربي الحديث، لذا فإنّ الترجمة الناجعة التي يهدف إليها زاوي هي الترجمة المنفتحة على مختلف العلوم والحقول والمستثمرة للمفاتيح التي استجدّت في العلم والتي من شأنها مساعدة النصوص في الانتقال بسلاسة وهدوء من ثقافة لغوية إلى أخرى من الثقافة الغربية باختلاف لغاتها إلى الثقافة العربية ولسانها، بالشكل الذي يسمح لها بأن تأخذ موقعها من العقل وتجعل منها محركات للتفكير وتوليد أنماط جديدة من المعرفة وتعميق الحوار، لا إلى النصوص ذات الطابع الاستهلاكي الاستهلاكي التي تموت عند أوّل قراءة.

ه/أ) - منهجية "زاوي" في الترجمة كآلية لبناء المعرفة اللسانية: إنّ المتصفحّ لكتاب "في جوهر اللغة" تحقيق سيمون بوكي ورودولف أنغرل والذي ترجمه مختار زاوي من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية (وهي الترجمة العربية الوحيدة له) سيلاحظ من الوهلة الأولى تصدّر "الكتاب؛ في مبحثه الأوّل" بسرد مجموعة من القضايا المتعلقة بآليات الترجمة التي تستهدف لسانيات سوسير تحديداً، تحت عنوان "مسائل في الترجمة وترجمة لسانيات سوسير" أي خصائص الترجمة -عموماً- وخصوصيات ترجمة النصوص السوسيرية تحديداً، ويهدّب هذا المسلك -الوعر- بمجموعة من العتبات الفرعية، منها ما يربطها بالتأويل وسيمانياتها، وما يربطها بالفكر قبل النص وما يتوارى خلفها من الزخم المعرفي اللساني، ثم ما يترتب عن أسبقيتها النصية وتمفصلاته ومكوناته، وهي القضايا التي درسها وكرّس لها مساحة (1.23%) أي 20 صفحة كاملة) وهو جزء يسير -جداً- بالنظر إلى حجم الكتاب ككل (247ص)، إلّا أنّ هذا الجزء اليسير يمثّل دليلاً عملياً ينظم كلّ ما اكتنزه هذا المؤلف من معارف ونقود ومقارنات، وبالتالي فإنّ الانتقال من موضوع إلى آخر ومن فكرة إلى أخرى إنّما يتمّ بطريقة منهجية منظمة، يمكن تصنيفها في جزئين؛ الأوّل منه خاص بالمترجم "زاوي" مقدّماً للكتاب

وللمتلقي العربي حتى صفحة (144) وما تبقى منه (247/145) مشترك بينه وبين المحققين والمؤلف (س. بوكي، ر. أنغر، وف. دو سوسير)، ففي الجزء الخاص به عمد إلى مناقشة جملة من المسائل "القضايا" منها ما يرتبط بشق طريق داخل الترجمة وتخصيصه لفكر سوسير التي تحتاج إلى معايير معينة وما يتطلبه من معارف لسانية موسوعية لاستيعاب حملته الدلالية وتمثّل زخمه والجلد أمام كثافته، حيث يتساوى المترجم -هنا- مع المتلقين العاديين في أنهم قرّاء أجمعين، ويختلف معهم في أنه قارئ بقلبين، قلب يجهر وآخر يسمع، بلسانين لسان يقول وآخر يفعل، بعقلين عقل يؤوّل ويفسّر وعقل يفهم ويعبر، بقلمين قلم ينقل وآخر يقرّر، وكلّ -هذا- يحدث بين جذب وسحب بين عالمين يتألفان حيناً وينفصلان أحياناً أخرى وهما عالم القارئ وعالم المقروء؛ حيث "إنّ فعل القراءة حوار ما ينفكّ يجريه القارئ مع النص، ولئن كانت الكلمات هي المرشحات فإنّ سفر القارئ إلى عالم النص لا يمكن أن يسلبه ما هو عليه، ولا يمكن أن ينسبه عالمه الخاص الذي أتى منه مزوداً بالآليات للفهم الشخصي، وأدوات للتأمل والإدراك الفردي".³³ وبذلك فإنّ المعادلة -الأصعب- ليست -فقط- في الالتزام بالقول بما يقوله النص، وإنّما أن تقول ما يريد النص نفسه في حدود ما يفهمه من تستهدفهم بالنقل، ففي الحالة الأولى يتوجب الاستعانة بالتفسير والتأويل الناتج عن "حصر كلّ مضامين النص وكلّ ما يمكن أن يحمله من معاني لا تبرز بروزاً تاماً".³⁴ وفي الحالة الثانية "أن يسعى إلى نقل كلّ المعاني الذي يمكن نقله فلا ينقص منه شيئاً، ولا يزيد عنه شيئاً، وأن يكون فضلاً عن ذلك منصتاً إلى ما يقصده المؤلف".³⁵ فالناقل يتلبس بجمهوره الذي يحمله في عالمه وينصبه في عالم المؤلف وفق نسق تضافي تراقبه سيميائيات محدّدة، وينشأ عنه تفسير مواز لنشأة اللغة الشارحة الواصفة (Métalangage) وبتاحدهما ينشأ "التحليل السيميائي للخطاب" وبانفصال كلّ طرف منها على حدة- تستدعي التأويل ولسانيات النص، والنقل ذاته يستدعي "التداولية" وفي حال طبيعة النص "السوسيري" يتوجب تدعيمها باللسانيات التاريخية والمقارنة بما هي عليه في القرن الثامن والتاسع عشر، بمعنى آخر؛ إنّ ترجمة نص لساني من لغة إلى لغة أخرى لا تتوقف عند مسلمة معرفة لسانيين مختلفين معرفة جيّدة فقط، وإنّما تستوجب التسلّح بترسانة من العلوم المساعدة ألقها ما ذكرنا وأقصاها ما يمكن المترجم من أن يكون موسوعياً ملماً بمختلف العلوم إماماً ممتازاً.

ومن خلال ما سبق، فإنّ فعل النقل -في حالاته العادية- فعل معقّد جدّاً، وسيكون أعقد -بكثير- في حال نقل فكر سوسير برمته؛ لأنّه يتطلب إضافة -إلى ما سبق- عدّة معرفية ثقيلة لمجابهة "المعارف التي تراكمت في معرفة فكر دو سوسير اللسانياتي، ومنها نصوصه في اللسانيات العامة وسائر ميادين البحث اللسانياتي التي أبدع فيها وكذا جّل النصوص التي قرأته وفسّرتها وحاولت تأويل ما اشتبه عليهم من أفكاره وتصورات".³⁶ وبالتالي فإنّ الاكتفاء بمقاربة المحاضرات "C.L.G" لم تعد تقريباً بقدر ما تبعنا عن تشكيل معرفة مؤسسة بفكر المنظر، وبهذا يحيلنا "مختار زاوي" بصمت على أطروحاته الأكاديمية ومدخلاته العلمية ورسائله ومقابلاته ورسائله ودروسه ونقوده وإلى جميع ما كتبه هو نفسه حوله وعنه وفيه، -مثلياً كان أم معاتباً- وأن نهتم بالنقائص التي سجّلها عليه العلماء جنباً إلى جنب مع الأهمية والقيمة التي نوليها لأرائه السديدة التي عبر عنها أو نقلت عنه؛ لأنّ هذه النقائص إنّما تكشف عن عيوب وقصور إبستيمي كرسه عصره يستوجب تقويمه في عصرنا، والأراء السديدة في تطوير فكره لاستنتاج أفكار أخرى، وكلّ هذه المواد ترسم المعالم الكبرى للمشروع العظيم الذي نادى إليه زاوي، غير أنّ هذا المشروع -بهذه- المواصفات لا يمكن بحال تحقيقه دفعة واحدة، أو من خلال أفراد متفرقين، وإنّما يحتاج إلى وقت وإلى مؤسسات علمية ضخمة وجادة تتكاتف فيها الجهود بحيث يكون كلّ فرد على دراية وافية لما يقوم به باقي الأفراد في تنسيق محكم، وبجهاز اصطلاحي ثابت ودقيق وبمفاهيم واضحة مطّردة، وحينها يمكن استخلاص نظرية لسانية حقيقية تجمع ما فرّقته -أقداً سوسير- في أعماله وأسفاره وطلبته ودروسه الخ، ومن شدّة مسائلة زاوي لكتاب "في جوهرية اللغة" مستنداً في قسمه الأوّل "مفدّمته" أي قبل الولوج إلى ترجمة نصه على بول ريكور الذي افتتح به إلى سوسير الذي ختم به أكثر من (مائة) عالم يمثلون أعلى موجة الفكر الغربي والعربي وأكثرهم احتجاجاً في الأعمال العلمية الموثقة، نفهم صراحة بأنّ منطلق هذه النظرية تكون أولاً من هذا الكتاب، كقاعدة أساسية لتصنيف وترتيب كل المعارف الموسوعية التي انتجها سوسير نفسه، ولكن هذا الكتاب -بدوره- يحتاج إلى منطلقات متدرجة، مها: منطلق الأنبية والتاريخية، ومنطلق أنية المورفولوجيات الشكلية وتاريخية الصوتيات، غير أنه لا هذا ولا ذلك يعدّ المنطلق الأساسي للجوهر المضاعف وإنّما هو مفهوم آخر، يقول زاوي "ولئن كانت الثنائية القائمة بين أنية المورفولوجيات وتاريخية الصوتيات هي الفكرة الأساسية التي انكبّ لأجلها سوسير على تأليف جوهرية اللغة فإنّها ليست على الرغم من ذلك الفكرة الرئيسية التي تنبني عليها النظرية أو اللسانيات العامة برمتها، بل إنّ مفهوم المماثلة Identité هو الذي حاز على هذه المرتبة".³⁷ إنّ هذا المفهوم الذي أعاد له (في جوهرية اللغة/E.D.L) نشاطه وفاعليته في فكر سوسير وما ينجّر عليه من إعادة النظر في المتكلم وعالمه الذي ينتج -من خلاله- العلامة اللسانية (اتحاد بين الصورة الصوتية والأفكار) وهو ما أدّى بـ"الزاوي" إلى مسألة -هذا المبدأ- ليبدأ منها في بيان قيمتها في لسانيات سوسير وينتهي

بها إلى لسانيات التأويل، كأهم مفتاح في ممارسة الفيلولوجيات السوسيرية وتوجيهها، "لقد باتت أولية الكلي على المحلي (التي دعا إليها سوسير وطبقها بالمسلايف) إحدى المبادئ التي استند إليها سيمون بوكي وهو يؤسس لكتابات دو سوسير الجديدة الموسومة بلسانيات التأويل، وهي جملة من المبادئ التي أسس بها لإبستمولوجيات سوسيرية جديدة.."³⁸ ومنه فالتأويل يفتح أفقاً جديداً كان مغموراً داخل النص وتحت طبقاته اللسانية والسيمائية، وهذا ما جعله مقولة أساسية في الفعل الترجمي والتحقيقي والفهم والنقد مما يؤدي بالنصوص إلى الانفتاح على احتمالات وإمكانات عديدة تستدعي ترجمات وتحقيقات متناصلة باستمرار، وعليه فإن أهم ما نفهمه من "زواوي" هو استبعاد تلقي ترجمة مثالية أو تحقيق نهائي كما كان يحذونا الأمل، وإنما عهدنا بالنصوص بهذه الآليات هو بناء تقاليد فكرية لاستعاب هذه الحمولة المعرفية.

وكذلك، وقد عرض في خاتمة مقدماته إلى مفهوم سوسير أصيل حاز به "زواوي" فضل السبق والتفرد حيث لا نجد له نظير يناظره في المؤلفات والترجمات العربية، وقلة قليلة من المصادر الأجنبية التي تكشف عنه، وهو مفهوم (الرباعيات/Quaternions) حيث يعدّ مفهوماً جديداً تماماً لم نعرفه عن سوسير إلا من خلال (E.D.L) حيث استقاه مباشرة من الرياضيات التي طوّرت بدءاً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1853م)، وخلصته أنه "وسيلة رياضية يمكن من تحليل أنساق من العلاقات القائمة بين متغيرات لا تتحدد قيمتها إلا بالعلاقات التي تقيمها فيما بينها.."³⁹ حيث حلّه "زواوي" خاصاً وبإسهاب ليعود واحداً من أهم المفاهيم والدروس والاكتشافات السوسيرية من خلال (E.D.L)، وأهم محطات مقدماته وبخاصة من خلال ربطه بالشكل والصورة الصوتية، حيث نبّه المترجم إلى تقارب منهجي بين هذا التصور السوسيري الصرف وما قام به علماء العرب القدامى وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي توصل إلى قاعدة رياضية مشابهة أدت به إلى استخلاص ثنائية (المهمل/ المستعمل) وعُدّ علماً قائماً بذاته؛ فالفصل الصارم بين (الشكل والصورة الصوتية) تتعاقب بثنائية (الآنية والزمنية) ثم مع (العناصر الداخلية والخارجية للسان والثوابت والمتحولات والتمثيلات والقيم والوقائع اللسانية.. الخ)، وكلها ثنائيات ومبادئ تعرّض لها "زواوي" حتى يعدّ المتلقي إلى وجهات النظر السوسيري للطبائع المزوجة للغة، مع دعوة صريحة ومباشرة إلى أنّه حان الوقت لتترك "C.L.G" جانباً والإقبال على سوسير الجديد من خلال (E.D.L).

ه/ب) - مختار زواوي؛ وأخيراً عاد سوسير!؛ ينطلق الكتاب بدءاً من قسمه الثاني ومن الصفحة السابعة والأربعين ومائة (147) بمقدمة المحققين (س. بوكي، و ر. أنغلر) في حدود تسع صفحات (من 147 إلى 155) تعرض الجانب التاريخي لتطور "الفيلولوجيات السوسيرية" التي سبق "زواوي" إلى سردها بالتفصيل في مقدماته حتى غدت مقدمة المحققين ملخصاً لما حلّه وأثبتته في قسمه الأول الذي لم يترك فيه شارة أو واردة إلا وتوقف عندها مطوّلاً، غير أنّ ما فاتته هو عدم تتبع منهجية التحقيق ولم يحمل بوكي وأنغلر مسؤولية التعديلات التي أجريها على الأقل في أربع خطوات؛ هي: وضع عنوان لنصوص لم ترد بها، عدم إثبات النصوص المشطوبة ترتيب وترقيم المخطوط، إضافة هوامش غير موجودة في المتن الأصلي، وحتى وإن كانا قد صرّحاً⁴⁰ بذلك إلا أنّ في ذلك نظر! وبخاصة بأن زواوي أعلم الناس بالدلالات السيميائية للتنشيطات السوسيرية من غيره.

أما المتن السوسيري فإنه يقوم على سبعين نصاً منظماً ومصنفاً على تسع وعشرين مبحثاً وفق العناوين التي تبيّنها المحققان، وهي نصوص متفاوتة بين الطول والقصر؛ إذ اطولها جميعاً هو المبحث الحادي عشر اختار له المحققان عنوان "تنوع العلامة" مع عبارة دونها سوسير في حاشيته (مسألة وجب النظر فيها)، وأقصرها المبحث الثالث عشر بعنوان (النحو؛ الأصناف) بين معقوفين، وتتفق هذه النصوص في عرض أفكارها كأنها تأملات فلسفية عميقة نتجت عن مقارنات طويلة بين اللغات، وفي اللسان من الداخل، كأنه حوار بين المؤلف والقضايا المعروضة يجد القارئ نفسه فيها أحياناً ينوب عن القضايا التي يستتطقها وأحياناً يسابق سوسير إلى استنتاجات تتفق مع ما يرمي إليه؛ هذا الاستدراج الناجح للمتلقى يعكس الخبرة البيداغوجية الفاتنة في التدريس التي تعتمد في مجملها طريقة الانطلاق من السؤال (واضح ومباشر) الذي يتبعه جواب ب(نعم/لا) ثم يأتي التفصيل والتعليل في فقرات موجزة وبجمل أقصر (أحياناً من العام إلى الخاص والعكس وتركيباً وتفكيكاً في أحيان أخرى) بلغة علمية وصفية مكثفة جداً، تتم عن زخم معرفي دقيق ومتناسق، تتخلّله جمل علمية من صنف "ومن وجهة نظر ما" التي تكرر ثلاثين مرة تقريباً وفي سياقات مضبوطة بامتياز، فضلاً عن استخدام المختصرات والمعادلات الرياضية الجبرية (كسور جموع ضروب.. الخ) تجعل الاستقبال البصري يحسبها نصوصاً في الفيزياء والكيمياء والرياضيات، مع التمثيل المستمد من لغات مختلفة (سنسكريتية إغريقية، المانية فرنسية.. الخ)، فضلاً عن ثبات المصطلح واستقراره الذي يحدده بدءاً ثم يربطه أخيراً بمفهومه مما لا يسمح بفهمها خارج أسبقيتها النصية وأفضيتها الفكرية، كما يلفت انتباه القارئ أنّ هذه النصوص ليست أصلية فحسب وإنما هي أصلية أيضاً تعبر عن أفكاره هو؛ إذ تتعدم فيه تماماً- الهوامش والاقتراسات والاحتجاج بأعمال علماء آخرين (يتفقون أو يختلفون) مع ما توصل إليه، ما عدا اسماً

واحدًا اُطرد في المتن مرتين ، وفي المبحث السابع صدره بمقولة اقتبسها من كتابه "النحو السنسكريتي" وهو اللساني الأمريكي "وليام واينتي" William Dwight Whitney (1894/1827م) الذي يجعله سوسير ولم يتحرّج -البته- في وصفه بالعالم الذي وضع اللسانيات في مسارها العلمي الحقيقي.

ه/ج) - حضور مختار زواوي في جوهر اللغة: إنّ مقاربة "زواوي" لفكر سوسير -عن كُثب شديد ومن أصوله- وبلغاته التي انبثقت منها والاطلاع على كلّ ما يرتبط بنص (E.D.L) قد سمح له بتكوين معرفة علمية وتاريخية ممتازة بمسار تطور "الفكر السوسيري" من خلال المخطوطات والنصوص وعبارة بذلك رجالاً لسانياً بالدرجة الأولى ثمّ إنّ تتبعها في مختلف محطاتها التي درجت عليه شكّلت عنده حسّاً عالياً بالتحقيق وشروطه وانتقاء الأحسن منها، وإنّ أي باحث يعود إلى كتاب "في جوهر اللغة" فإنّه سرعان ما يلاحظ وعي الرجل بأهمية النص الذي يترجمه ما يبرّر الأدوات التي شحذها لهذا الغرض، وما يتوجب تصحيحه من مفاهيم خاطئة درج عليها الباحثون العرب منذ الترجمات الخمس للمحاضرات وكرّسته من تشوهات لفكر سوسير، ممّا تسبب في تقليل حضوره في العقل العربي إلاّ لمأمًا، بل والتضييق على اللسانيات بتبسيطها حدّ الاكتفاء بالاستئناس التاريخي السطحي بها، وتهميشها لقصورها عن خدمة اللغة العربية ومساهماتها في حلّ مشكلاتها المعاصرة.

إنّ ترجمة "زواوي" قد ابتلعت النص الأصلي وأغرقتة -بحق- فضلا عن ترتيب الظروف المعرفية التي تضع القارئ العربي وغير العربي بأمان في عالم سوسير وفي إلهيجه المتدفّق والمتأجج، لذا لا نستبعد أن يستند عليها الباحثون والمنظرون والمعجميون والمؤرخون -باطمئنان- في إعادة بناء تاريخ السوسيرية واللسانيات المستقبلية ككل، ولن نفاجئ إذا ما تمّ ترجمتها إلى لغات أخرى.

ه/د) - قيمة ترجمة مختار زواوي لكتاب في جوهر اللغة: إنّ قيمة هذه الترجمة لكتاب (E.D.L) لا تنحصر في حسن التناقص بين لغتين فحسب، وإنّما في عموم الفائدة التي ترقبها وترومها، وقبل استفادة القارئ -الفضولي والمتخصص- ممّا يحمله بين دفتيه فقد استفاد المترجم -ذاته- وسنرى فيما بعد (2021م) أبعاد هذه الخبرة الممتازة في ترجمة وتقديم كتاب (نصوص في اللسانيات العامة)، وفي (مسائل في تلقي النظرية السوسيرية) ثمّ (مقدّمات في النظرية السوسيرية)، فهذا المشروع الكبير الذي عزم زواوي على اطلاق شرارته وبثّه في العالم العربي لا يعود إلى رغبة ذاتية شخصية للرجل بقدر ما هي ضرورة وحاجة علمية للأمة ككلّ، علّها تستدرك وتدرّك ما فاتها وهو كثير خلال قرن كامل، حيث منحنا نصوص سوسير الجديدة ومخطوطاته من خلال "مختار زواوي" فرصة ثانية يمكن استثمارها لإثبات الحضور العربي في العقل العلمي العالمي المعاصر.

خاتمة:

إنّه من الصعب -فعلا- عند تناول أفكار سوسير الجديدة وبالطريقة الشائقة الماتعة التي يعرضها مختار زواوي بالدراسة والتحليل والتعريف، ومحاولة رسم خارطة معرفية تحاكي هذا الفكر الخلاق أن تضع نقطة ما على هذه الخرائط وتطمئن إلى أن بحثاً ما ينتهي عندها، وهو مستوف لكلّ ما يريد إثباته أو نفيه، ومع ذلك فإنّ هذا البحث يجب عليه ذلك، ليستقرّ على جملة من النتائج التي نرتبها على النحو الآتي:

- 1- إنّ تجنّب كتاب المحاضرات كمصدر أساسي للتعريف بفكر سوسير أصبح ضرورة ملحة لما هي عليه من عجز على تمثّل مشروعه ونظريته وأفكاره وبخاصة الترجمات العربية الخمس.
- 2- يتوجب إعداد ترجمة جديدة لكتاب "المحاضرات في اللسانيات العامة" تكون ترجمة تتضافر عليها الجهود وتتوحد فيها الصفوف المطلّعة ومستندة إلى تحقيق المخطوطات وبخاصة أعمال غودال وأنغلر ودومورو وبوكي وغيرهم، والاتفاق على جهاز اصطلاح عربي لتلقي فكره ولسانياته.
- 3- توطيد المعرفة العربية بالنصوص السوسيرية الجديدة وبخاصة كتابيه "في جوهر اللغة" و" نصوص في اللسانيات العامة" وتنمين الترجمات التي تشتغل في هذه الدائرة المعرفية.
- 4- إنّ اللسانيات التي ينبغي توطينها والاستفادة منها ليست اللسانيات التي بشرت بها المحاضرات وغدّتها الترجمات العربية وإنّما هي لسانيات سوسير؛ لأنّ لسانيات سوسير لسانيات مستقبلية لم تنم أركانها بعد.
- 5- إعادة النظر في البرامج الدراسية في العالم العربي باعتماد إدراج الأبتمولوجيا وفلسفة اللغة من أجل فهم سوسير وأفكاره فضلا عن إعادة الاعتبار إلى اللغات القديمة.
- 6- إعادة الاعتبار لللسانيات التاريخية والمقارنة وإلى بنيتها الفكرية والمعرفية التي أسهمت في تطوير اللسانيات، وإعادة تدريسها في مختلف الجامعات والتخصصات التي تسمح بذلك.

الهوامش والإحالات:

- ¹ - مختار زاوي، مقدمات في النظرية السوسيرية. ط1، دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة، 2021م، جيجل- الجزائر، ص65 وما بعدها بتصرف، وينظر كذلك: فرديناند دو سوسير، نصوص في اللسانيات العامة؛ حققها سيمون بوكي ورودولف أنغلر؛ ترجمها وقدم لها بمقدمات في الفيلولوجيات السوسيرية مختار زاوي. ط1، ابن نديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2021م، ص92 وما بعدها بتصرف، نقلا عن: C. Bota, la question de l'ordre dans les cours et les écrits saussuriens de linguistique générale, essai de refonte géométrique, Cahier Ferdinand de Saussure, N° 55, 2002, p167
- ² - فرديناند دو سوسير، نصوص في اللسانيات العامة؛ حققها سيمون بوكي ورودولف أنغلر؛ ترجمها وقدم لها بمقدمات في الفيلولوجيات السوسيرية مختار زاوي. ص98
- ³ - مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد. ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي ليبيا، 2017م، ص205 بتصرف.
- ⁴ - voir : A. Meillet : compte rendu du cours de linguistique générale, publiée dans le BSL, 1916. TXX, p 32. Article télécharger a partir de site suivant : <http://www.revue-texto.net/index.php?id=113>. Le dimanche 21/ 04 /2024
- ⁵ - Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, Publié par Albert Séchehayé avec la collaboration de Albert Riedlinger, édition critique préparée par Tullio de Mauro, postface et traduction de Jean louis Calvet, Edition Payot, 1967,p11
- ⁶ - ينظر مثلا المخطوطات المصورة التي نقلها مختار زاوي في كتاب "في جوهرية اللغة" والتي تظهر كثرة التشطيبات وما يصاحبها من تصحيحات، فرديناند دي سوسير، في جوهرية اللغة، تحقيق سيمون بوكي ورودولف أنغلر، قدم له وترجمه مختار زاوي. ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر: 2019، ص69 و70 كما يمكن التوسع في الموقع الآتي: https://www.google.com/search?q=image+des+manuscrits+de+saussure&sca_esv شوهه يوم 2024/04/04م.
- ⁷ - مصطفى غلفان، اللغة واللسان والعلامة عند سوسير في ضوء المصادر الأصول. دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1. 2017م، بنغازي ليبيا، ص69
- ⁸ - مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد. 100
- ⁹ - المرجع السابق، ص129
- ¹⁰ - مارييل بينالفيو فيسسيا، هوس بطعم الجنون؛ عندما يسمع سوسير أصواتًا. ترجمة وتقديم: نبيل موميد، مجلة الفيصل، دار الفيصل الثقافية، 1 مارس 2022م، مقال منشور في الصفحة الآتية: <https://www.alfaisalmag.com/?p=23033> تم الاطلاع عليه: 2024/04/24م.
- ¹¹ - voir : Jean Starobinski, les mots sous les mots ; les anagrammes de Ferdinand de Saussure. Lamber-lucas, Galimard, paris : 1971
- ¹² - للتفصيل أكثر يرجى العودة إلى: مختار زاوي، مسائل في تلقي النظرية السوسيرية. دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة، ط1، الجزائر: 2021م، ص142 وما بعدها
- ¹³ - voire : Alain Zaepffel, Souffrance de Ferdinand de Saussure. Revues, instance ; Art, psychanalyse, politique. P175, N5, 2011, article publier sur le site suivant : <https://www.cairn.info/revue-insistance-2011-1-page-157.htm>
- ¹⁴ - Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, Publié par Albert Séchehayé avec la collaboration de Albert Riedlinger, édition critique préparée par Tullio de Mauro. P395
- ¹⁵ - مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد. 130
- ¹⁶ - Pierre Yves Testenoire, les manuscrits de F. de Saussure déposés à la bibliothèque de Genève en 20119, cahier de Saussure, 2021, p2 publier sur le site suivant : <https://hal.science/hal-03502198/document> Le dimanche 21/ 04 /2024
- ¹⁷ - مختار زاوي، دو سوسير من جديد؛ مدخل إلى اللسانيات. ابن نديم للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر: 2017م، ص35 بتصرف
- ¹⁸ - فرديناند دو سوسير، نصوص في اللسانيات العامة؛ حققها سيمون بوكي ورودولف أنغلر؛ ترجمها وقدم لها بمقدمات في الفيلولوجيات السوسيرية مختار زاوي. ص18
- ¹⁹ - المصدر السابق، ص ن
- ²⁰ - Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, librairie LA ROUSSE, 2eme édition, 2002, Paris : p371
- ²¹ - فرديناند دو سوسير، نصوص في اللسانيات العامة؛ حققها سيمون بوكي ورودولف أنغلر؛ ترجمها وقدم لها بمقدمات في الفيلولوجيات السوسيرية مختار زاوي. ص115
- ²² - مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد. ص213
- ²³ - المرجع نفسه، ص214
- ²⁴ - فرديناند دو سوسير، نصوص في اللسانيات العامة؛ حققها سيمون بوكي ورودولف أنغلر؛ ترجمها وقدم لها بمقدمات في الفيلولوجيات السوسيرية مختار زاوي. ص120 بتصرف
- ²⁵ - المصدر السالف، ص130 بتصرف
- ²⁶ - مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد. ص146 و147 بتصرف
- ²⁷ - فرديناند دو سوسير، نصوص في اللسانيات العامة؛ حققها سيمون بوكي ورودولف أنغلر؛ ترجمها وقدم لها بمقدمات في الفيلولوجيات السوسيرية مختار زاوي. ص128 بتصرف
- ²⁸ - المصدر نفسه ص136
- ²⁹ - مصطفى غلفان، لسانيات سوسير في سياق التلقي الجديد. ص139 بتصرف
- ³⁰ - المرجع نفسه، ص140
- ³¹ - voir ; Anne Hénault. Saussure en toutes lettres. Recherches sémiotiques / Semiotic Inquiry, v 34. 2014 <https://www.erudit.org/fr/revues/rssi/2014-v34-n1-2-3-rssi02602/1037157ar.pdf>
- ³² - Georges Mounin, Clefs pour linguistique. Collection Clefs SEGHERS, Paris, 1er édition, 1968, p22
- ³³ - فرديناند دي سوسير، في جوهرية اللغة، تحقيق سيمون بوكي ورودولف أنغلر، قدم له وترجمه مختار زاوي. ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر: 2019م، ص25
- ³⁴ - المصدر السابق، ص27
- ³⁵ - المصدر السابق، ص29
- ³⁶ - المصدر السابق، ص34
- ³⁷ - المصدر السابق، ص101

³⁸ - المصدر السابق، ص 118

³⁹ - المصدر السابق، ص 121

⁴⁰ - المصدر السابق، ص 155